علم النحو: السليقة والنشأة و المصطلح

د/ أحمد قريش*

ملخص البحث:

لقد أرسى "الخليل" (ت 170هـ) وتلميذه "سيبويه" (تـ 180هـ) حقائق متعلقة بعلم النّحو صارت من البديهيات أو شبه ذلك. والنظرة المتمعّنة والثّاقبة في "الكتاب" تسمح بإدراك حقيقة أصالة النّحو العربي ونقائه وقدسيته عند علمائه الأوائل الذين عاشوا في الفترة الأولى من الإسلام "أنّه أنقى العربية عربية"[1]. وما يشير إلى قدسيته، هو نعت كتاب سيبويه أوّل كتاب نحوي بـ" قرآن النّحو"[2]. وما رسّخ هذا الفكر الأصيل، والتصوّر الدّقيق، والفهم العميق لطبيعة صناعة هذا العلم - عند أولئك النّحاة - تلك الأسس والأصول التي قام عليها من جهة، والتّوسع في موضوعاته والإلمام بمسائله من جهة أخرى، بالإضافة إلى كثرة العلماء الذين تعاطوه و خاضوا في دراسته والتّأليف فيه، فأصبح بذلك يحتلّ مكانة متميّزة في الثقافة العربية. والحاجة إلى تعلّمه لأهميته أصبحت أكثر من ضرورة، هذا ما تشير إليها تلك الرواية عن عمر بن الخطاب - رضي اللّه - عنه قال: " تعلّموا النّحو كما تتعلمون السّنن والفرائض"[3]. فلم يكن عمر ليحث الناس على تعلّم النّحو، ويشدّد في ذلك حتى يشبّهه بالسّنن و الفرائض. فصار من العلوم التي نالت قدرا كبيرا من الاهتمام و الدراسة، وكثرت في شأنه المصطلحات منها ما تعلقت بالعلم ذاته أو ما شمله من قواعد.

- الكلمات المفتاحية: اللغة، السليقة، اللحن، النحو، المصطلح.

تقديم: نشأة العلم

تحتلّ اللّغة البشرية المكانة المرموقة في حياة الإنسان الفكرية ومختلف نشاطاته الحياتية، ذلك لأنّه عاجز- تمام العجز- إجراء أي تواصل بين الأفراد والمجتمعات

---

[1]* أستاذ محاضر بقسم اللغة والأدب العربيين، جامعة تلمسان، الجزائر.

([1]) النحو العربي و الدرس الحديث، بحث في المنهج: عبد الراجحي،1982، ط9، دار النهضة العربية، بيروت، ص9.

([2]) نفسه، ص16.

([3]) البيان والتبيين: الجاحظ، (أبو عثمان عمرو بن بحر (255هـ) تحـ عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، ج2، ص21.

من دون اللّجوء إلى اللّغة، كما لا يتسنّى له سبر أغوار المنظومة الفكرية الإنسانية دون امتلاك ناصيتها، وما يحكمها من أنظمة متكاملة ومتفاعلة فيما بينها ضمن إطار النّظام اللّغوي الشّامل الّذي بواسطته يعبّر الفكر الإنساني عن كيانه، أي أنّ هذا الإنسان في الوقت الّذي اقتدر فيه على الاصطلاح و وضع الألفاظ، اهتدى بحكم تفكيره إلى وضع قواعد لضبط اللّفظ، وتحديد المعنى، وتنسيق العبارة، وتحسينها وتجميلها، فكانت اللّغة، ولعلّ ما كان يطلقون عليه "اللغة" كان يقابله مصطلح اللّسان[4].

وبمقدار رقيّ الجماعة وتحضرها يكون حظّ لغاتها أيضا من وضع القواعد، وطرق التّنسيق والتجميل، لأنّها إضافة إلى كونها عبارة عن "أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم"[5]. فهي محكومة أيضا بجملة من النواميس اللّغوية تلزم المتكلّم احترامها في كلّ عملية تواصل. فعلى المستوى الصوتي فهي مقيّدة بمدرجه الممتد من الشّفتين إلى أقصى الحلق. وعلى مستوى الاستعمال ما تقدر هذه الأصوات صنعه في أثناء تقلبها وتركبها من ألفاظ مستعملة وألفاظ يمكن استعمالها في المستقبل، وكلا المستويين لهما مقدار محسوب لا تقوى اللّغة على مجاوزته. فرصيد الألفاظ العربية المستعملة ثمانون ألف مادة، والممكنة الاستعمال يرقى بها الحساب إلى اثني عشر ألف ألف مادة.

وما لا تختلف حوله الدراسات أنّ العربية أقدم اللّغات السامية، ومن أقدم لغات العالم، فلم تبرح في جاهليتها عن عقر بيئتها، ولم تتعدّ جغرافية الجزيرة، وخروجها في الإسلام كان للجهاد ونشر العقيدة. ولم يتواصل العرب بغير لغتهم، ولم يكتبوا بغير ألف بائهم طوال مراحل تاريخهم، على خلاف كثير من الأمم[6]. وقد أشار أحد علماء العربية إلى هذه الميزة، بقوله: "كانت العرب في جاهليتها على إرثٍ من إرْث آبائهم في لغاتهم وآدابهم..."[7] ولهذا حافظت العربية ولا تزال على كيانها وأصالتها. "إنما انقادت واستوت واطردت وتكاملت بالخصال التي اجتمعت لها في تلك الجزيرة"[8]، ما يجعلها تحمل كمونياً نحواً وهو بمعناه الحقيقي طبيعي على لسان كل متكلم يتلقنه.

---

(4) في اللهجات العربية: إبراهيم أنيس(ت1977م)، 1952م، ط2، القاهرة: مطلعة لجان البيان العربي، ص14.

(5) الخصائص: ابن جني (أبو الفتح عثمان ت 392هـ)، 1374م، تحقيق عبد الوهاب النجار، القاهرة، ج1، ص33.

(6) المعرب و الدخيل في اللغة العربية و آدابها: محمد أتنوخي، ط1، دار المعرفة للطباعة و النشر و التوزيع، 1426هـ 2005م، ص6.

(7) الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها: ابن فارس(ت 395 هـ)، 1964م، حققه وقدم له مصطفى الشويمي، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت، ص78.

(8) البيان والتبيين، المصدر السابق، ج1/163.

هذا ما يترجم بجلاء ارتباط حياة الأمة العربية منذ التاريخ القديم بحياة لغتها ارتباطا لا نظير له على خلاف غيرها من الأمم، وعزّز هذا الارتباط وقوّى أواصره القرآن الكريم الذي نزل بلسان عربي، [إنّا أنزلناه قرآنا عربيا لعلّكم تعقلون].[9] [إنّا جعلناه قرآنا عربيا لعلّكم تعقلون].[10] [وإنّه لتنزيل ربّ العالمين، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي مبين].[11]

يعدّ القرآن الكريم حلقة هامة في تاريخ اللّغة العربية، ونموذجا يحمل الجديد لهذه اللّغة الّتي تطوّرت في إثره، وبفضله اخترقت حدود الإنسانية المحضة، ولا يقام لها فهما، كما عبّر عن ذلك المستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير: إن أهمل أهمية هذا "الحدث القرآني"[12]. فكانت جديرة بأن تكون معربة عن دين جديد، كما كان الاهتمام بها ودراستها غاية ووسيلة، فهي غاية ممثلة في هذه اللّغة الجديدة في كلام اللّه سبحانه وتعالى، وكلام نبيّه الكريم، وهي وسيلة لفهم معاني الاستعمالات اللّفظية المختلفة الواردة في القرآن الكريم، وهكذا طبع القرآن الكريم اللّغة العربية بطابع واضح، واندثرت بموجبه آثار اللّهجات، والتزمت الإعراب الذي لم يكن شائعا ومستعملا على النّحو الذي التزمت به نصوص القرآن، وجعلت الإعراب السّمة البارزة الملازمة للعربية التي أريد لها أن تكون كذلك[13].

وسمة الإعراب المتعلقة بالعربية، تؤكد وجودها أمور ثلاثة: الوثائق المنقولة[14]، والأخبار المدوّنة، وكون هذه الظاهرة – الإعراب - وسيلة تعبيرية لا يمكن أن تستغني عنها إلاّ إذا غيّر نظام الجملة فيها[15].

ونشأت هذه السمة في العرب " فناً قبل أن تنشأ علماً"[16]. لذا تصوّر بعض الدّارسين أن "العرب كانوا يعرفون الإعراب قبل علم النّحو، كما كانوا يحسنون النّظم قبل

---

(9) يوسف 2.

(10) الزخرف 3.

(11) الشعراء الآيات: 193، 194، 195.

(12) التطور اللغوي التاريخي: إبراهيم السمرائي،1983م، ط3، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت: لبنان، ص28.

(13) نفسه، ص57.

(14) للمزيد ينظر ظاهرة الإعراب في النحو العربي: أحمد سليمان ياقوت،1983م، ديوان المطبوعات الجامعية: الجزائر، ص6 - 9. وتاريخ العرب قبل الإسلام: سعد زغلول عبد الحميد، دار النهضة العربية، ص16 - 18.

(15) أصول النحو العربي: محمد خير الحلواني(ت1986)، 1979م، د ط، ص132.

(16) البحث اللغوي عند العرب: أحمد مختار عمر،1997م، عالم الكتب، القاهرة، ص82.

علم العروض، وكان ذلك ملكة طبيعية فيهم حتى اختلطوا بالأعاجم"[17] فتعرضت لغتهم إلى تأثيرات ما سمح بنقل ألفاظ من مواضع إلى مواضع أخرى بزياداتٍ زيدت، وشرائع شُرعت، وشرائط شُرطت"[18]، لتعزّز قدرتها على استيعاب المفاهيم المستحدثة أيّاً كانت، والتّعبير عنها، بل بالتّأكيد أصبحت أقدر وأطوع؛ لأسباب لغوية وحضارية، وأدّلة تاريخية واجتماعية، "فحين توافرت لشعبها أسباب النهوض في العهود القديمة...، وسِعت العلوم والمعارف التـي ذاعت إذ ذاك، ولم تقصرّ عن التعبير عن شيء منها"[19].

وأكّدت الحقائق المتعلقة بتاريخ اللغة، أنّ الناس من أتباع سيّد الخلق وجدوا صعوبة لغوية في قراءة القرآن و فهمه، وبخاصة أهل المدن و الأمصار، لأنّ من خصوصيات اللّغة التي نزل بها القرآن الكريم، فهي من حيث اللّهجة الصّوتية لغة قريش ومكّة، ومن حيث البناء والإعراب لغة الشّعر السّائدة في بوادي نجد والحجاز[20]. أي أنّ القرآن جاء معرباً ومعجزاً، ومثل ذلك حديث رسول الله (صلى)، ثمّ إنّ شعر العرب الجاهليين ونثرهم كان آية في نظمه وإعرابه.

وحلاّ لهذه المشكلة اللغوية دعا الرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى إعرابه في قوله: "أعربوا القرآن"[21]، لأنّ فهم كتاب الله لا يتأتّى إلاّ بتعلّم العربية على الوجه الأكمل ليفتح للمتعلّم مغاليقه، ويطلعه بعمق على ما فيه. ولعلّ ما يجلي هذا المغزى أكثر دعوة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إلى التّحكم في القراءة السليمة توخيا للمعنى القرآني الصحيح في تلك الرواية التي وردت على عهده أنّ أعرابيا قدم لتعلم القرآن، فقال: من يقرئني شيئا مما أنزل الله تعالى على محمد - صلى الله عليه وسلم- فقرأ رجل سورة التّوبة: [إنّ الله بريء من المشركين ورسوله].[22] بكسر لام كلمة "رسوله" فقال الأعرابي: أو قد بريء الله من رسوله؟ إن يكن الله تعالى بريء من رسوله فأنا أبرأ منه، فبلغ الأمر عمر

---

(17) تاريخ آداب اللغة العربية: جرجي زيدان، 1978م، طبع(2)، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ج1/220.

(18) الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها: ابن فارس، حققه وقدم له مصطفى الشويمي، 1964م، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت، ص78.

(19) أخبار النحويين البصريين: السيرفي أبو سعيد، 1955 م، تحقيق طه محمد الزيني و محمد عبد المنعم خفاجي، ط1 ، ص 16. وإسماعيل مظهر في تقديمه لكتاب "مقدمة لدرس لغة العرب" للعلايلي، صفحة (هـ).

(20) المفصل في تاريخ النحو العربي، الجزء الأول قبل سيبويه: محمد خير الحلواني(ت1986م)، مؤسسة الرسالة، دط، دت، ص11.

(21) الصاحبي: ابن فارس(ت 395 هـ)، 1993م، تحقيق: عمر الطباع، طبع(1)، مكتبة المعارف، بيروت، ص65 وما بعدها.

(22) التوبة 3.

بن الخطاب فدعاه فقال: أتبرأ من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟ فقال: يا أمير المؤمنين إنّي قدمت المدينة ولا علم لي بالقرآن، فسألت من يقرئني، فأقرأني هذا سورة التّوبة فقال: إنّ الله بريء من المشركين ورسوله، فقلت: أوقد بريء الله من رسوله؟ أن يكن الله تعالى بريئا من رسوله فأنا أبرأ منه، فقال عمر - رضي الله عنه - ليس هكذا يا أعرابي، فقال: كيف هي يا أمير المؤمنين؟ قال: [إن الله بريء من المشركين ورسولُه]، فقال الأعرابي: وأنا والله أبرأ ممن بريء الله ورسولُه منهم[23]. فأمر عمر بن الخطاب ألا يقرئ القرآن إلا عالم باللّغة.

والأمر لا يقتصر على هذا فحسب، بل كثير من الخلافات التي وقعت بين الفقهاء مردّها في معظمها إلى اختلافهم في فهم أساليب العربية، فيعودون إلى كلام أهلها وأقوال النّحاة ليحتكموا إليها ويحكّموها، كلّ ذلك لأنّ كتاب الله يمثّل الذروة العليا في الأساليب العربية.

ووجد الأعاجم الداخلون في الإسلام أنفسهم يستعملون لغة غير لغتهم فاضطرهم ذلك لتعلّم اللّغة العربية لدينهم ولدنياهم، فكانوا أحوجين إلى نوع من العلم يسهل لهم طريق التعلم، فسمحت هذه الحاجة إلى وضع علم النّحو، "وكان طبيعياً أن ينشأ ذلك في العراق لا في الحجاز ولا في الشام، لأنّ الحجاز لم يكن في حاجة إلى قواعد يقيم بها لسانه، وأن موالى العراق أكثر رغبة من موالي الشام، ورغبة الفرس في العربية كانت أكثر من رغبة سواهم"[24]. وممارسة النّحاة لهذا الضّبط هدتهم إلى كشف علل الإعراب، فكان هذا العلم، الذي هو أول أمره ضبط لمعاني الألفاظ برسم حركاتها، أو هو الجانب العملي من ممارسة الضّبط والتعليل توخياً لهندسة معمار الإعراب الذي يتم به التفريق "بين المعاني فلو" أنّ القائل إذا قال: ما أحسن زيد، لم يفرق بين التعجب، والاستفهام، والذم إلا بالإعراب..." [25].

فمسار العربية كشف عن الجهود التي بذلت كي تسود لغة القرآن في وضوحها والتزامها الإعراب، ولتكون لغة عامة لا وجود فيها للغات الخاصّة الطّائفية.

كما أسفر الدّرس اللّغوي عند العرب عن استقراء الضّوابط التي تحكم العربية على أنّها نظام كامل، لأنّ مجمل التّعاريف للّغة لم تخرج عن كونها بناء جاء على نحو معيّن، أي أنّها

---

(23) نزهة الألباء في طبقات الأدباء: لابن الأنباري (أبو البركات عبد الرحمان بن محمد، ت577هـ)، 1402هـ، 1982م، ط(1)، تحقيق إبراهيم السامرائي، بيروت، ص16.

(24) فجر الإسلام: أحمد أمين، 1969م، ط(10)، دار الكتاب العرب، بيروت، ص183 بتصرف.

(25) الصاحبي: ابن فارس(ت395هـ)، تح: عمر الطباع، المصدر السابق، ص65 وما بعدها. .

نظام، إضافة إلى كونها غريزة وفطرة، هذا ما يراه أبو حيان(تـ حوالي400هـ) في الإمتاع والمؤانسة مختصرا المناظرة التي جرت بين أبي سعيد السيرافي، وأبي بشر متّي: " قال متّي: يكفيني من لغتكم هذه، الاسم والفعل والحرف. قال أبو سعيد: أخطأت لأنّك في هذا الاسم والفعل والحرف فقير إلى وصفها وبنائها على التّرتيب الواقع في غرائز أهلها"[26].

نشأ النّحو العربي- كما أسلفت - فنّاً تمرَّنَت في إثره ألسنة النّاطقين بالعربية على طرائق للأداء تمكّنت من طبائعهم، أي أنّ اللّغة العربية بنواميسها كانت فطرة وغريزة في العرب الأوائل لفترة طويلة، وظلّوا يجهلون في مرحلة الاستقراء ما تواضع عليه النّحاة من مصطلحات لجهودهم اللّغوية، لأنّهم كانوا يحتكمون إلى سليقة ذات منهج دقيق، أساسه الذّوق الرفيع، والنّطق السليم، والوزن العربي الخالص، فاللّفظ يعرب بادئ ذي بدء بالبداهة من غير قوانين[27]، والروايات حول ذلك كثير. قال الجاحظ(تـ255هـ): "روى أصحابنا أن رجلاً من البلديين قال لأعرابي: "كيف أهلك" قالها بكسر اللام. قال الأعرابي: صلباً، لأنه أجابه على فهمه، ولم يعلم أنه أراد المسألة عن أهله وعياله"[28]. وهذا ياقوت الحموي(تـ626هـ) ينقل في إرشاد الأريب رواية عن ابن جني(تـ392ه) أنّه سأل أحد الأعراب ممن يثق في عربيته، عن تصغير حُبارى، فيجيبه: حُبرور، ذلك أنّ الحبرور في اللّغة هو فرخ الحُبارى، أمّا التّصغير الصّرفي حُبَير أو حُبَيرى، فهو ممّا لا يخطر ببال الأعرابي، وحين سأله كيف تجمع مُحرنجما؟ أجاب: فرّقه حتّى أجمعه. إذ المعنى الدّلالي للمحرنجم هو المجتمع، ولا يتسنّى جمعه إلاّ بعد أن يفرّق، قال ابن جني: كان غرضي من ذلك أن أعلم ما يقوله، أيكسّر فيقول: حَرَاجم، أم يصحّح فيقول: مُحرنجمات " فذهب هو مذهبا غير ذين[29].

ومن الروايات التي تصبّ في هذا السياق، سُمع أعرابي ينشد: نحنُ بني علقمةَ الأخيارا

فقيل له لِمَ نصبت (بني)؟ فقال: وما نصبته...[30] لأنه لا يعرف النَّصْب إلا إسناد الشيء.

ويتّضح ذلك أكثر في قول الأصمعي (تـ216هـ) لأعرابي: أتهمز اسرائيل؟ قال: إني إذن لرجلُ سوءٍ، قلت: أفَتجر فلسطين؟ قال: إني إذاً لرجل قويّ. فهذا الأعرابي لم يفهم من الهمز

---

(26) الإمتاع والمؤانسة: أبو حيان (علي بن محمد بن العباس تـ حوالي 400هـ)، الليلة الثامنة، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، ج1، ص116.

(27) المعرب و الدخيل في اللغة العربية و آدابها، السابق، ص15.

(28) البيان والتبيين، المصدر السابق، ج163/1.

(29) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب: ياقوت الحموي (تـ626هـ)، 1993م، (ط1)، تح إحسان عباس، دار الغرب الإسلامية، بيروت، ج5، ص38.

(30) الصاحبي في فقه اللّغة و مسائلها و سنن العرب في كلامها: ابن فارس (أبو الحسن أحمد بن زكريا بن فارس تـ395هـ)، تحقيق السيد أحمد صقر، دط، دت، ص35.

إلاّ العيبَ والشتمَ، لذا أبى أن يكون عَيَّاباً؛ لأن ذلك من صفات سوء الخلق، ولم يفهم من الجرّ إلاّ السحبَ... أما الهمزُ بمعنى النطق بالهمز، والجرّ بمعنى الإتيان بالحركة المخصصة، فهو أبعد ما يكون عن ذهنه وتفكيره[31]، أي انه لم يعرف المصطلح النّحوي بمعناه واستعماله الاصطلاحي.

وتشكّلت لدى الأعراب في تلك الفترة فكرة عن النّحوي على أنّه من متصنّعي الكلام، فتجلّت تلك الفكرة في نعت أحد الفصحاء النّحويين بأنّهم يتشدّقون في كلامهم، ويتكلّفون دون بيان: ولستُ بنحويّ، يلوك لسانه ** ولكن سليقيّ يقول فيُعرب[32]

ولذا لم يسر يوما في اعتقاد العرب أنّ الإعراب وشاح توشح به اللّغة العربية، ولكنّهم اتّخذوه وسيلة تعبيرية يحمل أثقل عبء في أداء المعاني الدّقيقة، على خلاف اللّغات الأخرى غير المعربة التي تجعل بناء الجملة ونظامها قائما مقام الإعراب، فتقدم الفاعل، وتستعمل الفعل المساعد، ثمّ تأتي بالفضلات، أمّا العربية فنظام الجملة فيها طيّع لا يلتزم حدود صارمة، لأنّ الإعراب هو الذي يدلّ السامع على الفاعل، و المفعول...

ونخلص من هذا إلى أنّ العربي استعمل المصطلحات النّحوية على الرغم من جهله بخصوصياتها، وهذا الأمر يجعلنا نقول بعدم إمكانية تحديد تأريخ لنشأة كلّ مصطلح من المصطلحات النّحوية تحديداً دقيقاً؛ لأن هذا التاريخ يحيط به الاضطراب وعدم ثبات المصطلح، لكن المؤكّد أن هذه المصطلحات قد سايرت نشأة النّحو[33]، وبدأت كما بدأت العلّة والقياس، وفكرة النّحو وطريقة تناولها كانت ساذجةً طبيعيةً في أوّل الأمر، وما جهد أبي الأسود الدؤلي (ت69هـ) إلا أولى محاولاتها في أوراق النّحو التي وضعها[34]، لكنها ما لبثتْ بمضي الزّمن وطول العهد ومتابعة الدّرس أن ترقى و تتطوّر[35].

وكان لزاما على الأوائل من العرب توفير أسباب التطوّر لحماية لغتهم من العوامل المؤثّرة فيها، سواء أكانت داخلية ناجمة عن مؤثّرات طبيعية مرتبطة بتطوّر اللّغة ذاتها، أم خارجية أفرزها امتزاج ثقافة العرب وحضارتهم بثقافة وحضارة من حتّمت الظّروف الاجتماعية والتّاريخية[36] الاحتكاك و الاتصال بهم. فلم يكن بدّ أن يكون لهذا الاتّصال أثره

---

(31) مدرسة البصرة النحوية: عبد الرحمن السيد، 1968م، ط(1)، دار المعارف، القاهرة، ص 324 – 325.

(32) التصريح على التوضيح: خالد الأزهري (ت905هـ)، 1326هـ، القاهرة، ج2، ص331.

(33) مكانة الخليل بن أحمد الفراهيدي في النحو العربي: جعفر عبابنة، 1984م، ط(1)، دار الفكر، عمارة، ص157.

(34) الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي: عبد العال سالم مكرم، 1977، مؤسسة الوحدة، الكويت، ص9.

(35) مدرسة البصرة النحوية، السابق، ص 324 – 325.

(36) أقصد بالظروف الاجتماعية المعاملات المصلحية التجارية، وبالتاريخية الفتوحات الإسلامية.

المحتوم، إلى جانب مظاهر الحياة المختلفة في لغة الفئتين، لذلك شاع في اللّغة ما أطلق عليه اللّغويون والنّحويون اللّحن، الذي يعرف على أنّه الخطأ اللّغوي في التّراكيب والكلمات ذات الأصول العربية. وقد عبّر الزبيدي (تـ989هـ) عن ظروف هذه الظاهرة بقوله: "لم تزل العرب على سجيتها في صدر إسلامها، وماضي جاهليتها، حتّى أظهر اللّه الإسلام على سائر النّاس، فدخلوا فيه أفواجا، وأقبلوا عليه أرسالا، واجتمعت فيهم الألسنة المتفرّقة واللّغات المختلفة، ففشا الفساد في اللّغة العربية، واستبان منها في الإعراب الّذي هو حليها والموضّح لمعانيها، فتفطّن لذلك من نافر بطباعه سوء إفهام النّاطقين من دخلاء الأمم بغير المتعارف من كلام العرب، فعظم الإشفاق من فشو ذلك وغلبته في تقييدها لمن ضاعت، وتثقيفها لمن زاغت عنه"[37].

وظهر اللّحن أوّل ما ظهر في القضايا ذات الصّلة بالإعراب، فهذه ابنة أبي الأسود الدؤلي(تـ69هـ) تنغمس فيه فتقول لأبيها: ما أشدُّ الحرِّ"، قال لها: "الحصباءُ بالرمضاءِ. قالت: إنّما تعجبتُ من شدّته. قال: أو قد لحن الناس؟"[38].

ولم يخف الرسول - صلى اللّه عليه و سلم- و بعض الخلفاء والعلماء والأعراب على حدّ السواء قلقهم من فشوه – و لا سيّما في قراءة القرآن الكريم – إذ سمع الرسول صلى اللّه عليه وسلم رجلا يقرأ فيلحن، فقال:" أرشدوا أخاكم فإنّه قد ضلّ".[39] و هذا ما خشاه أبو بكر على نفسه في قوله: "لأن أقرأ و أسقط أحبّ إليّ من أن أقرأ و ألحن" [40]. وارتاب منه عبد الملك بن مروان، حين قيل له: أسرع إليك الشيب، فقال: "شيّبني ارتقاء المنابر مخافة اللحن". وفي رواية أخرى:" شيّبني ارتقاء المنابر وتوقُّع اللّحن"[41]. والتزم الحجاج بعدم

---

(37) لحن العوام: أبو بكر الزبيدي (أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد الله تـ989هـ)، 1964م، تحقيق رمضان عبد التواب، المطبعة الكمالية، القاهرة، ص4.

(38) الشعر والشعراء: أبو العباس المبرد(أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر تـ286هـ)، دار المعارف، ص729.

(39) الخصائص، المصدر السابق، ج2، ص8.

(40) المستطرف في القرآت العشر: أبو الطاهر أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن سوار البغدادي(تـ496هـ)، 1426هـ.2005م، ط(1)، تحقيق ودراسة عمار أمين الردو، دار البحوث للدراسات الإسلامية و إحياء التراث، 1، ص188.

وينظر المزهر في علوم اللغة العربية و أنواعها: السيوطي(عبد الرحمان جلال الدين تـ911هـ)، تحقيق ج: جاد المولى وزميله، القاهرة، د ت، ج2، ص397.

(41) تيسير وتكميل شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك: محمد علي سلطاني، إعداد فئة من المدرسين، دار العلماء دمشق: سورية، ج1، ص14.

الوقوع فيه بعد أن قوّم يحيى بن يعمر (ت129هـ) لسانه في استشارة له: أتسمعني ألحن على المنبر؟ قال: تقول: الأمير أفصح من ذلك، فألح عليه، فقال: حرفاً، قال: أيّاً؟ قال: في القرآن، قال الحجاج ذلك أشنع له، فما هو؟ قال: في قوله جلّ وعزّ: [قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ].[42] فتقرأها (أَحَبُّ) بالرفع، والوجه أن تقرأ بالنصب (أَحَبَّ) على أنه خبر كان، قال: لا جرم لا تسمع لي لحناً أبداً فألحقه بخراسان[43]. كما دفع - اللّحن - عبد العزيز بن مروان على تعلّم اللّغة في رواية أطلعنا عليها ابن كثير(ت774هـ) في مؤلفه البداية والنهاية في أثناء ترجمته له: كان يلحن في الحديث وفي كلامه، ثمّ تعلّم العربية فأتقنها وأحسنها، فكان من أفصح الناس، سبب ذلك أنّه دخل عليه رجل يشكو ختنه، فقال له عبد العزيز: من خَتَنَكَ؟ فقال الرجل: ختنني الخاتن الذي يختن الناس، فقال لكاتبه ويحك بماذا أجابني؟ فقال الكاتب: "يا أمير المؤمنين كان ينبغي أن تقول من خَتَنُكَ؟ فوقع في نفسه ألاّ يخرج من منزله حتّى يتعلّم العربية"[44].

وأظهر الكشف المبكّر لهذا الدّاء اللّساني مواقف حازمة لتقويضه واحتوائه قبل استفحاله، ولعلّ أوّل موقف كان ذاك الذي أبداه الرسول - صلى الله عليه و سلم - حين أحسّ بمسؤولية الوقاية منه، داعيا في ذلك الله أن يشمل برحمته من يصلح نفسه منه في قوله: "رحم الله امرءا أصلح من لسانه"[45]. كما أبدى بعضهم الشدّة في معالجة الظاهرة، منهم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ذكر عنه أنّه ردّ كتاب أبي موسى الأشعري عامل الكوفة في عهده للحن ورد فيه موقّعا أسفله: أقسم عليك ألا ما قنعت كاتبك سوطا، فلما جاء الكتاب إلى الكاتب وسأل عن خطئه فيه، قيل له في عنوانه[46]، فأصلح عنوانه وأرسله إلى الخليفة فقبله منه. كما ورد في الأخبار أنّ عمر بن الخطاب قد أدّب أولاده بسبب اللّحن[47].

---

(42) التوبة 24/9.

(43) طبقات النحويين واللغويين: الزبيدي (أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد الله ت989هـ)، 1373هـ، 1954م، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، ص28.

(44) البداية والنهاية: ابن كثير(إسماعيل بن عمر الدمشقي، ت774هـ)، 1348هـ، القاهرة، ج9، ص61.

(45) الخصائص، المصدر السابق، ج3، ص245.

(46) وهو" من أبو موسى إلى الخليفة الثاني عمر... " وقيل أنّه أول خطأ في الكتابة، ينظر لحن العوام المصدر السابق، ص4.

(47) معجم الأدباء- إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب: ياقوت الحموي (ت626هـ)، 1414هـ، 1993م، تحقيق إحسان عباس، دار العرب الإسلامي: بيروت، ج1، ص20. وينظر الخصائص لابن جني، المصدر السابق، ج2، ص8.

ولم يخف الخليفة هارون الرشيد عدم رضاه عن لحن وقع من الفراء (ت207ه) في حضرته، وخاصة أنّه كان من علماء اللّغة، فقال له ملتمسا منه العذر لما بدر منه لأنّه لم يكن من البداة المطبوعين على الفصاحة: "إنّ طباع أهل البدو الإعراب، وطباع أهل الحضر اللّحن، فإذا تحفظت لم ألحن، وإذا رجعت إلى الطّبع لحنت"[48]. فلا المكانة التي حظي بها الفراء عند الخليفة شفعت له، ولا المقام سمح بغضّ الطّرف عن اللّحن، لأنّ قناعة الاستعمال السليم للغة مبدأ تشبّع به العرب، وقد أشارت إلى ذلك بعض القصص التي أوردها الجاحظ (ت225هـ) في مؤلفه البيان والتّبيين، أنّ العرب إذا أرادت أن تستمع إلى نادرة أوصت بالحفاظ على إعرابها ومخارج ألفاظها، لأنّ تغييرها يؤدي بها للخروج عن غايتها" ويردف - الجاحظ- قائلا موضحا بأنّه: "إذا التقطت أيّ نادرة من كلام العرب، فاحذر أن تسردها إلا مع إعرابها، بمعنى محاولة ضبط مخارج ألفظها، فإن غيّرت نطقها مثلما هو عند المولّدين والبلديين لم يعد لهذه الحكاية معنى"[49].

كما نقل نفس الكاتب رواية في المؤلّف ذاته من باب التندر في اللّحن الذي كان محلّ الفكاهة بين الأعراب والنّحاة، أنّ نحويا تقدّم بين يدي السلطان يشكو رجلا في دين له عليه، قال:"أصلح الله الأمير لي عليه درهمان، فقال خصمه: لا والله أيّها الأمير إنّ هي ثلاثة دراهم، لكنّه لظهور الإعراب ترك من حقه درهما"[50]. وظهور الإعراب الذي أشار إليه الخصم كان في لفظة ثلاثة، فالعدد يذكّر مع المعدود المؤنث، ويؤنث مع العدد المذكر في قواعد اللغة العربية، هذا ما أثار مخاوف المتكلم أن يقع في اللحن، فاستبدل لفظة ثلاثة بلفظة درهمان متنازلا في ذلك عن درهم من حقّه. ما كان لهذا الشاكي أن يضيّع حقه لو أصلح لسانه.

وإصلاح اللغّة لا يتأتّى إلاّ بالعربية (الإعراب، والكلام، واللّحن، والنحو). وباكورته يمكن تلخيصها في رواية عن الزجاج (ت316هـ) أن أبا الأسود الدؤلي(ت69هـ) قال: "دخلت على علي بن أبي طالب فرأيته مطرقاً متفكراً فقلت: فيم تفكر يا أمير المؤمنين؟ قال: إنّي سمعت ببلدكم هذا لحناً فأردت أن أصنع كتاباً في أصول العربية، فقلت: إن جعلت هذا

(48) طبقات النحويين واللغويين، المصدر السابق، ص41.

(49) البيان والتبيين: الجاحظ (أبو عثمان بن بحر محبوب الكناني، ت225هـ)، 1368هـ، 1949م، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، ج1، ص91.

(50) نفسه، ص322.

أحييتنا، وبقيت فينا هذه اللّغة"[51]. وهذا المسعى من دون شكّ يقتضي مصطلحات تعين على تعيين هذا العلم وما تضمّنه من قواعد.

المصطلح

ظهر مفهوم "مصطلح" في اللّغة العربية، نتيجة لتطوّر الحياة الفكرية والسياسية والاقتصادية، التي وجهت بعض ألفاظ العربية وجهات معيّنة، وهذا الإجراء دليل حياة العربية، ونوع من الديناميكية التي تحاول الألفاظ مواكبة مسار الحياة بتياراتها المختلفة، وهي ظاهرة تشهد لها الحضارة العربية في جوانبها جميعاً.

والمصطلح في مفهومه القاموسي، هو من أصل المادة: (صلح)، والصلحُ: تصالح القوم بينهم، والصلح: السلم، قد اصطلحوا وصالحوا واصلحوا وتصالحوا... بمعنى واحد)[52]. وقال أحمد بن فارس اللغويّ: "الصاد واللام والحاء أصل يدّل على خلاف الفساد"[53]. وقال الأزهري(ت509ه): " تصالح القوم واصطلحوا بمعنى واحد"[54]. وكلاهما يعني أن الجذر الثلاثي للفظة (مصطلح) كان يعني في الجاهلية الصلح أو الصلاح المناقض للفساد، ولم يكن يدلّ على شيء من المعنى الذي اكتسبه في العصور التّالية، وأن الفعل (اصطلحوا) لم يكن يعني أكثر من ائتلاف القوم بعد الاختلاف.

ثم صقل التّطور هذا اللّفظ، وأضاف إلى معناه الأول معنى جديداً يوضحه الزبيدي(ت379هـ) في قوله: "الاصطلاح اتفاق طائفة مخصوصة على أمر مخصوص".[55] ويحدّد غيره المصطلح العلمي، فيقول: "المصطلح العلمي هو لفظ اتفق العلماء على اتّخاذه للتّعبير عن معنى من المعاني"[56]. "والاصطلاح يجعل للألفاظ مدلولات جديدة غير مدلولاتها اللّغوية الأصلية"[57].

---

(51) الأشباه والنظائر: السيوطي،1985م، ط(1)، تح: عبد العال مكرّم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج13/1.

(52) لسان العرب، ابن منظور الإفريقي (ت711هـ)، دار لسان العرب، بيروت، مادة (صلح)

(53) معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، د.ت، مادة (صلح).

(54) تهذيب اللغة: أبو منصور الأزهري،1964م، تح عبد السلام محمد هارون ومحمد علي النجار، دار القومية العربية مادة (صلح) 4/ 243.

(55) تاج العروس: المرتضى الزبيدي،1969م، طبعة الكويت، مادة (صلح).

(56) المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث: الأمير مصطفى الشهابي، 1988م، مجمع اللغة العربية، دمشق، ص6.

(57) نفسه، ص6.

وبشكل أوضح المصطلح لفظاً يطلق للدلالة على مفهوم معيّن عن طريق الاصطلاح (الاتّفاق) بين الجماعة اللّغوية على تلك الدلالة المرادة، التي تقرن بين اللّفظ (الدّال) والمفهوم (المدلول) لمناسبة بينهما[58]، "لكن لا يشترط وجود هذه العلاقة بين الاسم والمسمّى"[59]، فلو أطلقنا اسم "مُنبّه" على جهاز معيّن، وأردناه مصطلحاً، وجب أن يكون هذا الجهاز من خصائصه التّنبيه، وهذه هي العلاقة المنطقية الواجبة بين المصطلح ومفهومه، أما الاسم: فقد نطلق الاسم "زيد" على شخص أو مسمّىً، لا يكون بالضرورة زيد. وهي بذلك ألفاظ مقررة تشبه الحدود وإشارات الطريق[60]، لها معانٍ يفهمها الناس، ومعانٍ أُخر لا يفهمها إلاّ أهل ذلك العلم الذي تنسب إليه[61]، فإن حصل هذا الاتّفاق بين جماعة المُحدثين تفتّق عنه مصطلح في الحديث، وإن قام بين جماعة الفقهاء نتج عنه مصطلح في الفقه، وإن كان بين جماعة النحاة كان المصطلح النحوي"[62]. كما يدلّ المصطلح الواحد على معانٍ تختلف باختلاف العلوم، فمصطلح (الخبر)[63] على سبيل المثال لا الحصر، له معنى عند النّحويين، وآخر عند المحدثين وثالث عند البلاغيين، كما أن الاختلاف في دلالة المصطلح يكون بين النحاة أنفسهم بسبب مناهجهم العلمية ومدارسهم المختلفة[64]. ولذا "وجب أن يتجاوز المصطلح الدلالة اللفظية والمعجمية إلى تأطير تصوّرات فكرية وتسميتها في إطار معيّن تقوى على تشخيص وضبط المفاهيم التي تنتجها ممارسة ما في لحظات

---

(58) المعجم الوسيط: إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة،1998م، ط(3)، (اصطلاح)

(59) المصطلحات اللغوية الحديثة في اللغة العربية: معجم عربي-أعجمي/أعجمي-عربي: محمد رشاد الحمزاوي،1987م، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص106.

(60) الأسلوب: أحمد الشايب، 1976م، ط71، مطبعة السعادة، القاهرة، ص97 – 98.

(61) النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع عشر للهجرة، 1978م، ط(1)، دار الحرية، بغدادم، ص284.

(62) المصطلح النحوي، نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري: عوض محمد القوزي،1981م، الرياض، ص22.

(63) الخبر عند النحويين كل ما أسندته إلى المبتدأ وحدثت به عنه، وعند المحدثين الراوية، وعند البلاغيين كلام يحتمل الصدق والكذب، ينظر: اللّمع في العربية: ابن جني (ت392هـ) 1982م، تحقيق: حامد المؤمن، ط(1)، مطبعة العاني، بغداد، ص80.

(64) المصطلح النحوي نشأته وتطوره، السابق، ص 24.

معيّنة، والمصطلح بهذا المعنى هو الذي يستطيع الامساك بالعناصر المُحدّة للمفهوم، والتمكّن من انتظامها في قالب لفظي"[65].

أقول: لمّا كان الأمر كذلك، فإنّ لبّ المشكلة كما تبدو لي، هو الاتّفاق بين الجماعة، والأسس والمبادئ التي يقوم عليها هذا الاتّفاق، وسبل تحقيقه.

وقد ارتضى المتخصّصون في علم المصطلح تعريفاً له في منتهى الدقّة، فعرّفوه بأنّه الرّمز اللّغوي المحدّد لمفهوم واحد تخصّص بعد شيوعه. بما يسمى بالدّلالة الصّناعية.

والمصطلحات التي عبّرت عن علم النّحو، حصرها بعض الدارسين في ثلاثة مصطلحات، هي: العربية والكلام والإعراب[66]. ويضيف بعضهم مصطلح اللّحن[67].

واستخدم ابن خلدون – في حديثه عن علم (النّحو)- ثلاثة مصطلحات: علم النّحو، وصناعة العربية، وعلم العربية [68]. وهو ما استخدمه النّحويون المتقدّمون كما سبق و أن ذكرت، ولكن ما شاع عند ابن خلدون(255هـ) استبدال (علم) بكلمة (صناعة)، ولا تكاد تفارق مدونته مستخدما كلمة (صناعة) مفردة، وجمعًا (صنائع).

أما من حيث أسبقية تلك المصطلحات في الوجود، فذهب بعض الباحثين إلى تقدّم اصطلاح (العربية)[69]، مستدلّين بقول عمر بن الخطاب: " تعلّموا العربية فإنّها تزيد في المروءة".[70] و في رواية أخرى "تعلّموا العربية، فإنّها تشبّب العقل، وتزيد في المروءة"[71]. كما نقل عنه أيضا قوله: " تعلّموا إعراب القرآن كما تتعلمون حفظه"[72]. ونقل فيما يدعّم هذا الاتّجاه عن كعب الأحبار أنّه حكم بين عبد اللّه بن عباس، و معاوية حين اختلفا في فهم

---

(65) المصطلح اللغوي في كتاب سيبويه: رسالة دكتوراه، للطالب: رقيق كمال، جامعة تلمسان2013/2012.

(66) أبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو العربي: فتحي عبد الفتاح الدجني،1974م، الكويت، وكالة المطبوعات، ص13. 14.

(67) المصطلح النحوي: نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري، السابق، ص16.

(68) المقدمة: ابن خلدون،2004م، تحقيق علي عبد الواحد وافي، القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ج3، ص1168.

(69) المفصل في تاريخ النحو العربي، السابق، ص12.

(70) المستطرف في القراءات العشر، السابق، ج1، ص188.

(71) طبقات النّحويين واللّغويين، السابق، ص13.

(72) إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز و جل: أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري(ت328هـ)، 1390هـ، 1971م، تحقيق محي الدين رمضان، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، ج1، ص19.

قوله تعالى: [عينٍ حمئةٍ]، فقال لهما: "أمّا العربية فأنتم أعلم بها، وأمّا أنا فأجد الشّمس في التوراة تغرب في ماء وطين"[73].

وتذكر بعض المصادر أنّ أوّل نصّ ورد فيه هذا المعنى الاصطلاحي ما نقله ابن نوفل عن أبيه، قال: سمعت أبي يقول لأبي عمرو بن العلاء (تـ154هـ): "أخبرني عمّا وضعت ممّا سمّيته عربية، أيدخل فيه كلام العرب كلّه..."[74]. ويؤكّد قدمه وعراقته – المصطلح- كذلك ما نقله الأصمعي (تـ216هـ) عن شعبة بن الحجاج(تـ160ه)، فقال: "حدّثني شعبة قال: كنت أختلف إلى أبي عقرب، فسأله عن الفقه، ويسأله أبو عمر عن العربية، فنقوم، وأنا لا أحفظ حرفا ممّا سأله، ولا يحفظ حرفا ممّا سألته"[75]. وروي عن عمرو بن دينار(تـ125ه) قال: اجتمعت أنا والزهري (تـ124 ه) ونصر بن عاصم (تـ89هـ). فتكلّم نصر، فقال الزهري: "إنه ليفلق بالعربية تفليقا"[76]. ومعلوم أنّ نصر بن عاصم من أوائل المهتمين بالدراسات النحوية[77].

كما أخذ برأي استعمال مصطلح العربية على أساس أنّه النّحو بعض المؤرّخين وأصحاب الطّبقات، حيث قال ابن سلام(تـ232هـ): "كان أبو الأسود أوّل من استنّ العربية، وفتح بابها، وأنهج سبيلها، ووضع قياسها"[78]. وقال المبرد (تـ280ه): "أول من وضع العربية ونقط المصحف أبو الأسود الدؤلي"[79].

وعلى ضوء أرجح الأخبار والروايات لم تعرف كلمة "العربية" بالمفهوم الاصطلاحي طريقها إلى الظّهور إلاّ بعد انتهاء القرن الثاني للهجرة، وقد أطلقت آنذاك على ما جمعه الرواة من البادية عن العرب الفصحاء بعد فشو اللّحن[80].

---

(73) غاية النهاية في طبقات القراء: ابن الجزري(ت833هـ)، 1402هـ، 1982م، ط(3)، دار الكتب العلمية: بيروت، ج2، ص303.

(74) طبقات النحويين، السابق، ص39

(75) نفسه، ص31

(76) أخبار النحويين البصريين، السابق، ص21.

(77) نفسه، ص27.

(78) طبقات فحول الشعراء: ابن سلام (محمد بن سلام، ت232هـ)، 1952هـ، تحقيق محمود شاكر، القاهرة: دار المعارف، ج1، ص15.

(79) طبقات اللغويين والنحويين: الزبيدي.أبو بكر محمد بن الحسن.1973م، ط(2)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص21.

(80) اللهجات العربية نشأة وتطورا: عبد الغفار حامد هلال، 1418هـ، 1989م، دار الفكر العربي، ص20.

والواضح في ذلك أنّ مصطلحي "عربية"، و"نحو" هما اللّذان أطلقا على هذا العلم، ثمّ زال الأوّل على الأيام، وبقي الثاني للدّلالة عليه.

مصطلح الكلام:

ومنه سمي نحو الكلام، إذ قال ابن فارس (تـ395ه): "ومنه اشتقاق النّحو في الكلام، كأنه قصد الصواب"[81].

ويستدل على تقدّم استعمال مصطلح (الكلام) بما روي عن أبي الأسود الدؤلي(69هـ)، وقد سمع اللّحن في كلام الموالي: "هؤلاء الموالي قد رغبوا في الإسلام فدخلوا فيه، فصاروا لنا إخوة، فلو علمناهم الكلام"[82].

مصطلح الإعراب

أمّا لفظة "الإعراب" في دلالتها اللّغوية، فهي:

التّغيير: يقال: فعلت كذا فما عرب علي أحد، أي: فما غير علي أحد. التحبب. ومنه العروب: المرأة المتحببة إلى زوجها، وبه فسر قوله تعالى: عربا أترابا".[83] الإجالة: يقال: عربت الدابة، أي: جالت في مرعاها. وأعربها صاحبها: أجالها. وإزالة الفساد. يقال: أعربت الشيء إذا أزلت عربه، أي فساده[84]، " فكان كقولك: أعجمت الكتاب، إذا أزلت عجمته"[85].

وعربت معدة الرجل إذا فسدت، فكان المراد من الإعراب إزالة الفساد، ودخول همزة السلب قلبت المعنى، ومنه أشكيت الرجل أي أزلت شكايته، وأعربت أزلت فساده.[86] ومعنى الإبانة، يقال أعرب الرجل عن حاجته إذا أبان عنها، والإعراب مصدر للفعل "أعرب"، قيل أعرب فلان كان فصيحا في العربية وإن لم يكن من العرب، وأعرب بحجته أفصح بها ولم يتق أحدا، والكلام بيّنة وأتى به وفق قواعد النحو، ويأتي للإبانة، يقال عرّب عنه لسانه: أبان

---

(81) جمهرة اللغة: محمد بن الحسن بن دريد أبو بكر،1987 م، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، 575/1.

(82) أخبار النحويين البصريين، السابق، ص 13.

(83) الواقعة، الآية 37.

(84) لسان العرب، المصدر السابق مادة (عرب). تاج العروس: المرتضى الزبيدي، 1969م، طبعة الكويت، مادة (عرب). همع الهوامع: تحقيق عبد العال سالم مكرم، دار البحوث العلمية، الكويت، دت، ج40/1.

(85) نقلا عن المصطلح النحوي لعوض حمد القوزي، ص15.

(86) التفسير الكبير، الرازي،1983م، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ج1/ص52.

وأفصح[87]. و الإعراب الذي هو النّحو، إنّما هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ، وأعرب كلامه إذا لم يلحن في الإعراب[88].

والكلام المعرب يضمن الإبلاغ بما يحتويه من علامات لإقامة الفروق بين عناصر الكلام. والإعراب في اصطلاح النحاة هو الإبانة عن المعنى. قال الزجاج(تـ316هـ): إن النّحويين لما رأوا في أواخر الأسماء والأفعال والحركات تدلّ على المعاني، وتبين عنها سموها إعراباً أي بياناً وكأن البيان بها يكون... ويسمى النّحو إعراباً والإعراب نحواً"[89].

لأنّ هناك علاقة وثيقة بين التّعريف اللّغوي والاصطلاحي للإعراب، وهو الإبانة والتوضيح للمعنى والناحية الإعرابية.

وابتغاء لهذا المعنى حثّ الرسول صلى الله عليه و سلّم الأخذ به في قراءة القرآن الكريم و شرحه، مستعملا مصطلح الإعراب في قوله: "أعربوا القرآن و التمسوا إعرابه".[90]

وذهب بعض العلماء والدّارسين[91] إلى أن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- هو أوّل من استعمل مصطلح الإعراب في قوله: "وليعلم أبو الأسود أهل البصرة الإعراب"[92]. والمقصود به النّحو على غرار ما ورد في عدد من المصادر العربية القديمة[93]. ويتأكّد ذلك من كلام الزجاج (تـ337ه) الذي استعمال كلمة (الإعراب) بمعنى النّحو اصطلاحا في القرن الثالث للهجرة،: "يسمى النحو إعرابا، والإعراب نحوا سماعا، لأن الغرض طلب علم واحد"[94].

---

(87) لسان العرب، المصدر السابق، مادة (عرب).

(88) نفسه، ج9، ص115.

(89) نظرات في التراث اللغوي عند العرب: عبد القادر المهيري، 1993م، ط(1)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.

وبنية العقل العربي: محمد عابد الجابري،1990م، ط(3)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص44.

(90) المستترفي القراءات العشر، السابق، ج1، ص186.

(91) المصطلح النحوي، نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري، السابق، ص14.

(92) أنباه الرواة على أنباه النحاة: القفطي جمال الدين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم يحيى، 2004 م، ط1 ، يحيى، المكتبة العصرية، 15/1.

(93) الفصول الخمسون: ابن معطي .يحيى، تحقيق : محمود محمد الطناحي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة، دط، د.ت، ص149.

(94) الإيضاح في علل النحو: أبو القاسم الزجاجي، (ت 337هـ)، 1986م، تحقيق الدكتور مازن المبارك، دار النفائس، ط(5)، ص91.

لعلّ المنبت الأصيل لهذا المصطلح حسب ما تشير إليه بعض المصادر، هو عملية (نقط المصحف) التي أنجزها أبو الأسود الدؤلي (ت69ه)[95]، وهو الذي سمى هذا النقط المعبر عن حركات أواخر الكلم إعرابا، وأنه قال قبل الشروع فيه: "أرى أن أبتدئ بإعراب القرآن".[96] وقد تكون التسمية بنقط الإعراب حدثت في ما بعد، تمييزا لنقط أبي الأسود عن نقط الاعجام الذي قام به بعد ذلك نصر بن عاصم(ت89هـ)[97]، و يحيى بن يعمر العدواني(ت117ه)[98]، كما ميزوا بينهما خطا بكتابة نقط الإعراب بلون أحمر ونقط الاعجام بلون أسود، وبقي أمر كتابتهما على هذه الحال حتى مجيء الخليل ابن أحمد (ت175ه) الذي أبدل نقط أبي الأسود بالحروف، لأنه كان يرى أن الفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء، والضمة بعض الواو.[99]

وقد جاءت هذه الكلمة – الإعراب- بمعنى النّحو في عدد من المصادر العربية القديمة ولعلّ أقدم مصنّف استعملت فيه هذه الكلمة بهذا المعنى- في حدود معرفتي- هو كاتب الفراء (ت207ه) الذي استهل فيه تفسيره للقرآن الكريم بقوله: " تفسير مشكل إعراب القرآن ومعانيه".[100] وما يجلي ذلك قوله: " ومما كثر في كلام العرب فحذفوا منه أكثر من ذا، قولهم: أيش عندك؟ فحذفوا إعراب (أي) واحدى ياءيه" [101]، وواضح أنه يريد بإعراب (أي) حركتها. وتلاه كتاب النحاس (ت238ه) الموسوم بـ" إعراب القرآن"، ثم كتاب ابن خالويه (ت 370ه) "إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم". و كتاب مكي بن أبي طالب القيسي (ت437ه) "مشكل إعراب القرآن".

وسار على هذا النهج في استعمال ذات المصطلح في وقت متأخّر وفي حدود ضيّقة، علماء القرن الرابع و ما أعقبه، كابن جني (ت392ه) في كتابه "سر صناعة الإعراب"، وهناك أيضا الحريري صاحب المقامات (ت576ه) في موسومه "ملحة الإعراب"، واستعمله

---

(95) صبح الأعشى: أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي(ت377ه)، 1987م، ط(1)، تحقيق يوسف علي طويل، دار الفكر دمشق، 151/3.

(96) نفسه، 160/3.

(97) وفيات الأعيان: ابن خلكان(ت681ه)، 1367ه، 1948م، نشره محي الدين عبد الحميد، القاهرة، 125/1.

(98) طبقات النحويين واللغويين: الزبيدي(أبو بكر محمد بن الحسن)، 1984، ط(2)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصر:دار المعارف، ص29.

(99) القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية، المصدر السابق، ص266 - 267.

(100) معاني القرآن: أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت207ه)، تحقيق أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار، د.ط، د.ت، 1/1 .

(101) نفسه، 2/1.

ابن معطي (تـ628ه) في كتابه "الفصول الخمسون"، إذ قال: "إن غرض المبتدئ الراغب في علم الإعراب حصرته في خمسين فصلا "[102].

مصطلح اللّحن

مصطلح اللّحن في مقابلة النّحو، يعني كما في المقاييس "إمالة الشيء من جهته... وهذا من الكلام المولد، لأنّ اللّحن محدث لم يكن في العرب العاربة الذين تكلّموا بطباعهم السليمة، ومن هذا الباب قولهم هو طيب اللّحن، وهو يقرأ بالألحان وذلك أنّه إذا قرأ كذلك أزال الشيء عن جهته الصحيحة بالزيادة والنقصان في ترنّمه، ومنه أيضاً "اللّحن" فحوى الكلام ومعناه، قال تعالى: "ولتعرفنّهم في لحن القول"[103]، وهذا هو الكلام المورّى به المزال عن جهة الاستقامة والظهور"[104].

وما توفّر لي من الأدلة على استعمال مصطلح (اللّحن) للتّعبير عن هذا العلم- وهي قليلة و مترددة - منها تلك الرواية المنقولة عن عمر بن الخطاب: " تعلموا الفرائض والسنة واللّحن كما تتعلمون القرآن"[105]. وما قاله أبو بكر الأنباري (تـ328هـ): وحدث يزيد بن هارون بهذا الحديث، فقيل له: "ما اللّحن؟ قال: النحو"[106].

مصطلح النحو

ذكرت للنّحو لغة المعاني التّالية: القصد: يقال: نحوت نحوك، أي: قصدت قصدك. ونحوت الشيء، إذا أممته. والصرف: يقال: نحوت بصري إليه، أي: صرفت. والمثل: تقول: مررت برجل نحوك، أي: مثلك. والمقدار: تقول: له عندي نحو ألف، أي: مقدار ألف. والجهة أو الناحية: تقول: سرت نحو البيت، أي: جهته. والنّوع أو القسم: تقول: هذا على سبعة أنحاء، أي: أنواع. والبعض: تقول: أكلت نحو السمكة، أي: بعضها. والتحريف، يقال: نحا الشيء ينحاه وينحوه إذا حرّفه[107]. ومنه سمي النّحوي نحويا لأنّه يحرّف الكلام إلى وجوه الإعراب.

---

(102) الفصول الخمسون، السابق، ص149.

(103) سورة محمد الآية 30.

(104) معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت (د.ت)، ج239/5.

(105) المصطلح النحوي، السابق، ص10.

(106) المصطلح النحوي: نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري، القوزي عوض حمد،1981م، الرياض: عمادة شؤون المكتبات، ص9.

(107) لسان العرب، المصدر السابق، ج15، مادة (نحا)

ويلاحظ أنّ النّحاة لم يذكروا المعنى الثالث، ولذا عدوا المعاني اللّغوية سبعة نظمها الداودي شعرا بقوله:

للنّحـــو سبع معان قد أتت لغة * * جمعتها ضمن بيت مفـرد كملا
قصد ومثـل ومقـدار وناحيـــــــة * * نوع وبعض وحرف فاحفظ المثلا [108]

وهو في أصل منبته يعني القصد والطريق[109]

والسّبب في تسمية هذا العلم بالنّحو يعود إلى ما أثبته بعض النّصوص التي تتحدّث عن بدايات هذا العلم، منها ما ذكره الزجاجي (تـ337هـ) أنّ أبا الأسود (تـ69ه) حين وضع كتابا فيه جمل العربية، قال للناس: "انحوا هذا النحو"[110]. أي: اقصدوه. والنّحو: القصد. وفي رواية أخرى أنّ علي بن أبي طالب سلّم أبا الأسود الصّحيفة النّحوية وقال له: "انح هذا النّحو"[111]. فأطلقت كلمة "النّحو" للدّلالة على هذا العلم. وهذه الرواية ترجّح أيضا الزّمن الذي استعمل فيه لأوّل مرة هذا المصطلح، بعد أن تعدّدت فيه الروايات. منها ما ترجعه إلى القرن الأوّل للهجرة قبل عصر ابن أبي إسحاق الحضرمي (تـ117ه) مع مصطلح "العربية"، وقيل: إنّ أوّل النّحاة الذين استعملوا مصطلح النّحو هو عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي[112].

وكان اللّغويون يخصّون به فرعا من فروع العربية، وما يعزّز هذا الرأي، ما نقل عن ابن سلام (232ه) عن أبيه عن يونس بن حبيب (تـ182هـ)، قال: "وقلت ليونس: هل سمعت من أبي إسحاق شيئا؟ قال: نعم، قلت له: هل يقول أحد "الصويق"؟ يعني السّوق، قال: نعم، عمرو بن تميم تقولها، وما تريد إلى هذا عليك بباب في النّحو يطرد وينقاس"[113].

وتنسب بعض الروايات إلى الخليل بن أحمد (تـ172هـ) أنّه سبق له وأن وقع بين يديه كتابين في النّحو لعيسى بن عمر(تـ149ه)، فقال فيهما:

---

(108) شرح المفصل: ابن يعيش النحوي (ت 643ه)، عالم الكتب، بيروت، مكتبة المتنبي القاهرة، (د.ت)،10/1.

(109) لسان العرب، المصدر السابق، ج15، مادة (نحا).

(110) الإيضاح في علل النحو: الزجاجي، تحقيق مازن المبارك، ص 89. و ينظر نزهة الألباب في طبقات الأدباء: ابن الأنباري، 1970م، ط(2)، تحقيق إبراهيم السامرائي، مكتبة الأندلس، بغداد، ص18.

(111) وفيات الأعيان، المصدر السابق، ج2، ص316.

(112)المصطلح النّحوي، السابق، ص: 19.

(113) طبقات فحول الشعراء، السابق، ج1، ص15.

بطل النّحو جميعا كلّه ** غير ما أحدث عيسى بن عمر[114]

ومنهم من يرجع أقدم محاولة لتعيين هذا العلم بهذا المصطلح إلى ما ذكره ابن السراج (ت316ه): "النّحو إنّما أريد به أن ينحو المتكلّم إذا تعلّم كلام العرب، وهو علم استخرجه المتقدمون فيه من استقراء كلام العرب، حتى وقفوا منه على الغرض الذي قصده المبتدئون بهذه اللغة"[115].

ويبدو أنّ تسمية الإعراب بالنّحو ليست بالمتأخرة، فهي تسمية قديمة، فعمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل المصطلحين للدّلالة على علم واحد، فقد ذكر السيوطي (ت911هـ) رواية عنه أنّه استعمل كلمة "الإعراب" بمعنى "النّحو" عندما قال: "و ليعلّم أبو الأسود أهل البصرة الإعراب"[116]. كما أنّه استعمل كلمة النّحو بمعنى الإعراب في تلك الرّواية التي شدّد فيها على تعلّمه: " تعلّموا النّحو كما تتعلمون السّنن والفرائض"[117].

وورد عن الأزهري (ت509ه) أنّه: " ثبت عن أهل اليونان فيما يذكر المترجمون العارفون بلسانهم و لغتهم، أنّهم يسمّون علم الألفاظ و العناية بالبحث عنه نحوا، فيقولون فلان من النّحويين، ولذلك سمي الإسكندراني يحي النّحوي للذي كان جعل له من المعرفة بلغة اليونان"[118].

واستعملت كلمة "نحو" بمعنى "مثل" إلى عهد ابن أبي إسحاق الحضرمي(ت117ه)، فنقل عنه أبو عبيدة عن يونس بن حبيبت(ت182ه) قوله: "ويزيدون في أوساط (فَعَلَ): افتعل، وانفعل، واستفعل، ونحو هذا"[119]. وشاع فيما بعد في مؤلفات اللغة. وبهذا وصلت كلمة "نحو" إلى مرحلة تؤدي فيها معنى اصطلاحي جديد للدّلالة على ضرب من علوم اللّغة العربية.

و ما دار في شأن هذه التّسمية أيضا، هو أنّ المقرئين كانوا يستخدمون كلمة "نحو" ليدلّوا بها على الطريقة العربية في عبارة ما، كأن يقول بعضهم لبعض: العرب تنحو في هذا كذا، أو نحو العرب في هذا كذا، أو أن يسأل سائل: كيف تنحوا العرب في هذا؟ أو أن

---

(114) المفصل في تاريخ النحو العربي، الجزء الأول قبل سيبويه، السابق، ص14.

(115) الأصول في النحو، السابق، ص35.

(116) نفسه، ص20

(117) البيان والتبيين، السابق، ج2، ص219

(118) لسان العرب، ابن منظور، مادة (نحا)

(119) مجاز القرآن: أبو عبيدة معمر بن مثنى(ت210هـ)، 1981م، ط(2)، تحقيق فؤاد سزكين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج1، ص316.

يقولوا: فلان ينحو في كلامه نحو العرب[120]. ومن المحتمل أيضا أنّ المؤدّبين كانوا يستخدمونها - كلمة "نحو" - لتوضيح القاعدة وتقريب الفهم بالمثال الفصيح، فصار هذا المعنى المعجمي معنى اصطلاحي من باب تسمية "الكلّ" باسم الجزء.

حدّ العلم باستخدام مصطلحي النّحو و الإعراب

ا) الإعراب

(الإعراب): في المتعارف عنه والمتواضع عليه، يتّضح من التّعريف، لأنّ المعنى الاصطلاحي قريب من المعنى اللّغوي وبخاصة في معنى الإبانة والوضوح، كما ورد في مقدمة سر صناعة الإعراب: "هو الإبانة عن المعاني بالألفاظ، ألا ترى أنّك إذا سمعت: أكرم سعيد أباه، وشكر سعيد أبوه، علمت برفع أحدهما ونصب الآخر الفاعل من المفعول"[121].

وتمتد جذور هذا التعريف إلى سيبويه (ت180ه)، فإنه عبر عن علامات الإعراب والبناء ب(مجاري أواخر الكلم) وقال: إنها ثمانية " يجمعهن في اللّفظ أربعة أضرب: فالنّصب والفتح في اللّفظ ضرب واحد، والجرّ والكسر فيه ضرب واحد، وكذلك الرفع والضمّ، والجزم والوقف. وإنما ذكرت لك ثمانية مجار، لا فرق بين ما يدخله ضرب من هذه الأربعة لما يحدث فيه العامل - وليس شيء منها إلا وهو يزول عنه - وبين ما يبنى عليه الحرف بناء لا يزول عنه، لغير شيء أحدث ذلك فيه من العوامل التي لكلّ عامل منها ضرب من اللّفظ في الحرف، وذلك الحرف حرف الإعراب" [122].

ولعل أولى المحاولات في صياغة تعريف الإعراب على هذا الاتجاه، بدأت في القرن السادس الهجري، إذ قال أبو البقاء العكبري (ت616ه): ذهب أكثر النّحويين إلى أن الإعراب معنى يدل اللّفظ عليه. وقال آخرون: هو لفظ دال على الفاعل والمفعول مثلا، وهذا هو المختار عندي"[123]. وعرّفه المبرد (ت285ه) بقوله: " الإعراب أن يتعاقب آخر الكلمة حركات ثلاث: ضم وفتح وكسر، أو حركتان منهما فقط، أو حركتان وسكون باختلاف العوامل"[124]. وقال الزجاجي (ت337ه): "والإعراب: الحركات المبينة عن معاني اللّغة، وليس كلّ حركة

---

(120) المفصل في النحو العربي، الجزء الأول، قبل سيبويه، السابق، ص15

(121) سر صناعة الإعراب: ابن جني (أبو الفتح عثمان، ت 392هـ) 1954م، تح: السقا و رفاقه، مطبعة مصطفى الباجي الحلبي، مصر، ص23.

(122) الكتاب: سيبويه (عمرو بن عثمان بن قنبر)، 1988م، ط(3)، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 13/1.

(123) مسائل خلافية في النحو: العكبري، تحقيق محمد خير الحلواني، دمشق، دار المأمون للتراث، ص110.

(124) الموجز في النحو: محمد بن السراج، 1965م، تحقيق مصطفى الشويمي، مؤسسة بدران للطباعة و النشر، بيروت، ص28.

إعرابا" [125]. وعرفه أبو علي الفارسي (تـ 377ه) بقوله: "الإعراب: أن تختلف أواخر الكلمات لاختلاف العوامل"[126]. وتحدث ابن فارس عنه قائلا:" من العلوم الجليلة التي خصّت بها العرب الإعراب، الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ، و به يعرف الخبر الذي هو من أصل الكلام، ولولاه ما ميّز فاعل من مفعوله، ولا مضاف من منعوتة، ولا تعجب من استفهام..."[127]. وقال ابن فارس (تـ395ه): " فأما الإعراب فبه تميز المعاني ويوقف على أغراض المتكلمين، وذلك أن قائلا لو قال: (ما أحسن زيد) غير معرب... لم يوقف على مراده ، فإذا قال: (ما أحسن زيدا) أو (ما أحسن زيد) أو (ما أحسن زيد) الأولى تعجبية، والثانية نافية، والثالثة استفهامية، أبان الإعراب عن المعنى الذي يريده " [128]. وعرفه الجرجاني (تـ471ه) بقوله: "الإعراب أن يختلف آخر الكلمة باختلاف العوامل في أولها"[129]. وقال ابن معطي (تـ628ه) "الإعراب تغير أواخر الكلم لاختلاف العوامل الداخلة عليها عند التركيب، بحركات ظاهرة أو مقدرة، أو بحروف، أو بحذف الحركات، أو بحذف الحروف"[130]. وقال ابن يعيش (تـ643ه): " الإعراب: الإبانة عن المعاني باختلاف أواخر الكلم، لتعاقب العوامل في أولها"[131]. وقال ابن مالك (تـ672ه): "الإعراب ما جئ به لبيان مقتضى العامل، من حركة أو حرف أو سكون أو حذف".[132] وقال بن هشام (تـ761ه): "الإعراب أثر ظاهر أو مقدر يجلبه العامل في آخر الاسم المتمكّن والفعل المضارع" [133]، أو هو"الشكل الذي يقع في أواخر

---

(125) الايضاح في علل النحو، السابق، ص91 - 92.

(126) الايضاح العضدي: أبو علي الفارسي، (أبو علي الحسن بن أحمد الفارسي تـ377ه)، 1416ه، 1996م، تح كاظم بحر المرجان، عالم الكتب ط(2)، 11/1.

(127) الصاحبي في فقه اللغة، المصدر السابق، ص 42.

(128) نفسه، ص190-191.

(129) الجمل: الجرجاني(أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمد تـ471ه)، 1392ه، تحقيق علي حيدر، دمشق، ص6.

(130) الفصول الخمسون، السابق، ص 154.

(131) شرح المفصل: ابن يعيش النحوي (تـ 643ه)، عالم الكتب، بيروت، (د.ت)، ج1/72.

(132) تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد: ابن مالك، (محمد بن عبد الله بن مالك تـ672ه)، 1387ه، 1967م، تحقيق محمد كامل بركات، دار الكتاب العربي، مصر، ص7.

(133) شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب: ابن هشام، دار الفكر، د.ت، ص33.

الأسماء والأفعال"[134]. وقال السيوطي (تـ911ه): "الإعراب أثر ظاهر أو مقدر يجلبه العامل في محل الإعراب"[135].

(النّحو):

اصطلح النّحاة على تعريف النّحو بإعراب كلام العرب، ومن جملة هذه التّعاريف ما أورده ابن جني(تـ392ه) في الخصائص: "النّحو هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من الإعراب وغيره، كالتثنية، والجمع، والتّحقير، والتّكسير، والإضافة، والنّسب، والتّركيب، وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل العربية بأهلها في الفصاحة"[136].

لعل أقدم محاولة لتعريف هذا العلم بالنّحو ما ذكره ابن السراج (تـ316ه) في قوله: "النحو إنّما أريد به أن ينحو المتكلّم إذا تعلّم كلام العرب، وهو علم استخرجه المتقدمون فيه من استقراء كلام العرب، حتى وقفوا منه على الغرض الذي قصده المبتدئون بهذه اللغة"[137]. وهو تعريف لا يرمي في واقع الأمر إلى تحديد حقيقة النّحو، بقدر ما هو تعريف بمنابعه، وبيان للهدف من تدوينه ودراسته. وعبّر عنه ابن عصفور(تـ669هـ) بقوله: "إنّ النّحو- عدا عن كونه- يعنى بوصف العلاقات بين مكوّنات الجملة، فإنّه يعنى بدراسة مكونات من أصوات، وأبنية كلمات، وما ينشأ عن آتلاف الكلمات في الجملة من دلالات معجمية"[138]. وقد شمله أيضا- هذا العلم- بتعريف آخر على أنّه: "علم بأصول مستنبطة من كلام العرب، يعرف به أحكام الكلمات العربية حال إفرادها كالإعلال، والإدغام، والحذف، والإبدال، وحال التركيب كالإعراب، والبناء وما يتبعهما من بيان شروط ..."[139].

و لعلّ أشمل التعريف لهذا العلم ما خلص إليه الفارابي (تـ339هـ) في "إحصاء العلوم" أثناء تعرضه للكلام الصّحيح الذي يخضع لـ "علم قوانين الألفاظ عندما تتركّب، وعلم

---

(134) شرح جمل الزجاجي: ابن هشام(أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن خروف الإشبيلي تـ609هـ)، 1419هـ، تحقيق سلوى محمد عمر، معهد البحوث و إحياء التراث الإسلامي، ص92.

(135) همع الهوامع، تحقيق عبد العال سالم مكرم، دار البحوث العلمية، الكويت، دت، 41/1.

(136) الخصائص، المصدر السابق، ج4، ص34.

(137) الأصول في النحو: ابن السراج (أبو بكر محمد، تـ316هـ)، 1985م، ط(1)، تحقيق عبد الحسين الفتلي، بيروت: لبنان، مؤسسة الرسالة، ص35.

(138) الجديد في الصرف والنحو، والقواعد الأساسية: عادل جابر صالح، 1990م، ط(1)، ص8.

(139) النحو التعليمي في التراث العربي: محمد إبراهيم عبادة، منشأ المعارف بالإسكندرية، 1986م، ص45.

قوانين عندما تكون مفردة"[140]. إلى أنّ علم قوانين الألفاظ المركبة فرعان: "علم قوانين أحوال التركيب، وعلم قوانين أطراف الأسماء والكلم"[141].

الخلاصة:

آية ذلك كلّه أنّ الدّرس اللّغوي ارتبط في نشأته بالقرآن الكريم، وهي حقيقة تاريخية عن المعرفة العربية الإسلامية. والتّفكير النّحوي في لغة العرب بدأ في الثلاثينات من القرن الأوّل على عهد الإمام علي- رضي الله عنه - حين تدارس هو وأبو الأسود الدؤلي أوضاع العربية، وحاجتها إلى الضبط بأصولها، لحمايتها من اللّحن. وما صنيع أبي الأسود الدؤلي المتمثّل في وضع النّقط الإعرابي للقرآن إلا أولى الوثبات في مسار علم العربية، ثمّ تناول تلامذته تلك المبادئ، ورعوها بالصقل، والتوليد، والتّفريع، واستلمها خلف من بعدهم لمتابعة الدرس بالبحث والتّقعيد، فكانت مجالس علمية ومصنفات يسيرة، حملت بوادر الدّرس النّحوي، وجعلت له أصولا تعمّق فيها الخليل وسيبويه، فكانت قواعد ضابطة أوضحا معالمها بالتفسير والتعليل. وسنّت سنتهما عدة أجيال، إلى أن أصبح النّحو العربي يحتلّ في التراث مكانة متميّزة لحجمه الهائل، وكثرة العلماء الّذين خاضوا في دراسته والتأليف فيه، وكانت انطلاقة جهودهم من البحث الميداني الواسع النّطاق للظّفر بأكبر مدونة في تاريخ العلوم اللّغوية، فدوّنوا مفرداتها وتراكيبها وأمثالها وعباراتها، مطردها وشاذها، ثمّ وصفوا كلّ ذلك بدقة متناهية، واستقرأوا القوانين العامة التي تخضع لها، وغير ذلك مما اعتمدت عليه العلوم العربية و الإسلامية و اللّسانيات الغربية الحديثة[142].

فما من شكّ في أنّ التّراث النّحوي الذي تمّ استقراؤه، وأنّ الجهد الذي بُذِل فيه خلال الفترات التّاريخية المتوالية يعدّ مرجعا للكثير من العلوم المختلفة قديما وحديثا. وإنّه ما زال يفتكّ من الباحثين العرب و غير العرب الإعجاب و الاهتمام باعتباره نتاج عقلي عربي محض لما فيه من دقّة في الملاحظة، ونشاط في جمع ما تفرق.[143] فدفع هذا الواقع المعرفي بالمستشرقين إلى الاعتراف بالجهود التي خصّ بها علماء العرب لغتهم من دون كلال، وبالتضحية الجديرة بالإعجاب، من أجل عرض اللّغة الفصحى وتصويرها في جميع مظاهرها، من ناحية الأصوات، والصّيغ، وتركيب الجمل، ومعاني المفردات على صورة

---

(140) إحصاء العلوم: الفارابي(محمد بن محمد أبو نصير، ت339هـ)، 1968م، تحقيق عثمان أمين، مكتبة الإنجلو مصرية، ط3، ص5. 7.

(141) نفسه، ص7.

(142) عبد الرحمن الحاج صالح: اللغة العربية بين المشافهة والتحرير، مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

(143) النحو الوافي: عباس حسن، ط 9 ، دار المعارف القاهرة، ج 1، ص3.

شاملة، حتى بلغت كتب القواعد الأساسية عندهم مستوى من الكمال لا يسمح بزيادة لمستزيد[144]. وعن هذا الواقع أيضا "نشأت لدى العربي رؤية من القداسة تجاه لغته النّوعية، وتجاه علمنة اللّغة"[145].

والمتّفق حوله أنّ علم النّحو، الذي يعدّ مقياس اللّغة، والمدخل إلى العلوم العربية والإسلامية[2]، استخدمت في تعيينه ثلاثة مصطلحات، وهي: النّحو، والعربية، والإعراب. ولا أدلّة كافية وشافية على استعمال (اللّحن) للتّعبير عن هذا العلم. وأمّا استعمال (الكلام) فإنه موضع خلاف وتردد. ولا شك في تأخر استعمال لفظ (الإعراب) عن كلّ من (النّحو) و (العربية) ، وإنّما الكلام في تحديد المتقدم من هذين الأخيرين.

المصادر والمراجع:

1) أبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو العربي: فتحي عبد الفتاح الدجني، الكويت، وكالة المطبوعات، 1974م.

1) إحصاء العلوم: الفارابي(أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان، ت339هـ)، تحقيق عثمان أمين مكتبة الإنجلو مصرية، (ط3)، 1968م.

3) أخبار النحويين البصريين: السيرفي أبو سعيد، تحقيق طه محمد الزيني و محمد عبد المنعم خفاجي، (ط1)، 1955 م.

4) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب: ياقوت الحموي(ت626هـ)، القاهرة، 1923م.

5) الأسلوب: أحمد الشايب، (ط71)، مطبعة السعادة، القاهرة، 1976م.

6) الأشباه والنظائر: السيوطي. تحـ: عبد العال مكرّم، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط(1) 1985م

7) الأصول في النحو: ابن السراج (أبو بكر بن محمد، ت316هـ)، تحقيق عبد الحسين الفتلي، بيروت: لبنان، مؤسسة الرسالة، (ط1)، 1985م.

8) أصول النحو العربي: محمد خير الحلواني(ت1986م)، د ط ،1979م.

9) الإمتاع والمؤانسة: أبو حيان(علي بن محمد بن العباس، ت حوالي 400هـ)، الليلة الثامنة، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت.

10) أنباه الرواة على أنباه النحاة.: القفطي جمال الدين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم يحيى، ط1، المكتبة العصرية، 2004م.

---

(144) العربية، دراسة في اللغة واللهجات والأساليب: يوهان فك، 1951م، ترجمة عبد الحليم النجار، طبعة الخانجي، القاهرة، ص2.

(145) الفكر العربي والألسنية: عبد السلام المسدي، ورقة قدمت إلى اللسانيات واللغة العربية، 1987م، ندوة تونس الجامعة التونسية، ص12.

11) الإيضاح في علل النحو: أبو القاسم الزجاجي، (ت 337هـ)، تحقيق الدكتور مازن المبارك، دار النفائس، الطبعة الخامسة، 1986م.

12) إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز و جل: أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري(ت577هـ)، تحقيق محي الدين رمضان، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1390هـ، 1971م.

13) البحث اللغوي عند العرب: أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، طبع سنة 1997م.

14) البداية والنهاية: ابن كثير(اسمعيل بن عمر الدمشقي، ت774هـ)، القاهرة، 1348هـ.

15) بنية العقل العربي: محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط(3)، 1990م

16) البيان والتبيين: الجاحظ (أبو عثمان بن عمرو بن بحر محبوب الكناني، ت225هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، 1368هـ، 1949م.

17) تاريخ آداب اللغة العربية: جرجي زيدان، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، (ط2)، 1978م.

18) تاج العروس: المرتضى الزبيدي ـ طبعة الكويت 1969م.

19) وتاريخ العرب قبل الإسلام: سعد زغلول عبد الحميد، دار النهضة العربية.

20) تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد: ابن مالك، تحقيق محمد كامل بركات، دار الكتاب العربي، مصر،1387ه،1967م.

21) التصريح على التوضيح: خالد الأزهري، القاهرة 1326هـ.

22) التطور اللغوي التاريخي: إبراهيم السمرائي، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت: لبنان، (ط3)، 1983م.

23) التفسير الكبير: الرازي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، 1983م.

24) تيسير وتكميل شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك: محمد علي سلطاني، إعداد فئة من المدرسين، دار العلماء دمشق: سورية، (ط1) ،1422هـ، 2002م.

25) تهذيب اللغة: أبو منصور الأزهري، تح عبد السلام محمد هارون ومحمد علي النجار، دار القومية العربية 1964م.

26) الجديد في الصرف والنحو، والقواعد الأساسية: عادل جابر صالح،(ط1)،1990م.

27) الجمل: الجرجاني(أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمد ت471ه)، تحقيق علي حيدر، دمشق،1392ه

28) جمهرة اللغة: محمد بن الحسن بن دريد أبو بكر، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين،1987م.

29) حاشية الخضري على شرح ابن عقيل: الشيخ محمد بن مصطفى الخضري الشافعي(ت1287هـ)، مطبعة دار إحياء الكتب العربية (د.ت).

30) الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي: عبد العال سالم مكرم، مؤسسة الوحدة، الكويت، 1977م.

31) الخصائص: ابن جني(أبو الفتح عثمان، ت392هـ)، تحقيق عبد الوهاب النجار، القاهرة، 1374م.

32) غاية النهاية في طبقات القراء: ابن الجزري، تـ833هـ، دار الكتب العلمية: بيروت، ط3، 402 هـ، 1982م.
33) شرح جمل الزجاجي: ابن هشام(أبو الحسن علي بن محمد بن علي بن خروف الإشبيلي تـ609ه)، تحقيق سلوى محمد عمر، معهد البحوث و إحياء التراث الإسلامي 1419ه.
34) شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب: ابن هشام، دار الفكر، د.ت
35) شرح المفصل: ابن يعيش النحوي (تـ643هـ)، عالم الكتب، بيروت، مكتبة المتنبي القاهرة (د.ت).
36) الشعر والشعراء: أبو العباس المبرد(أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر تـ286هـ)، دار المعارف.
37) الصاحبي في فقه اللّغة و مسائلها و سنن العرب في كلامها: ابن فارس (أبو الحسن أحمد بن زكريا بن فارس تـ395هـ)، تحقيق السيد أحمد صقر، دط، دت.
38) صبح الأعشى(أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي تـ377ه)، تحقيق يوسف علي طويل، ط(1) دار الفكر دمشق، 1987م.
39) طبقات فحول الشعراء: ابن سلام محمد بن سلام الجمحي(محمد بن سلام، تـ232هـ)، تحقيق محمود شاكر، القاهرة: دار المعارف، 1952هـ.
40) طبقات النحويين واللغويين: الزبيدي (أبو بكر محمد بن الحسن، تـ989هـ)، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، القاهرة،1373هـ، 1954م .
41) العربية، دراسة في اللغة واللهجات والأساليب: ترجمة عبد الحليم النجار، طبعة الخانجي، القاهرة 1951م.
42) الفكر العربي والألسنية: عبد السلام المسدي، ورقة قدمت إلى اللسانيات واللغة العربية، ندوة تونس الجامعة التونسية، 1987م.
43) فجر الإسلام: أحمد أمين، دار الكتاب العرب، بيروت، طبع(10)، 1969م
44) الفصول الخمسون: ابن معطي .يحيى، تحقيق محمود الطناجي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، دط، دت.
45) في اللهجات العربية: إبراهيم أنيس (ت1977هـ)، ط(2)، القاهرة: مطلعة لجان البيان العربي، 1952م.
46) الكتاب: سيبويه (أبو بشر عمر بن عثمان بن قنبر 180هـ)، تح عبد السلام محمد هارون، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، 1968م.
47) لحن العوام لأبي بكر الزبيدي (أبو بكر محمد بن الحسن،989هـ)، تحقيق رمضان عبد التواب، الطبعة الكمالية، القاهرة، 1964م.
48) لسان العرب: ابن منظور الإفريقي المصري(أبو الفضل جمال الدين بن عمر بن مكرم 711هـ)، بيروت: لبنان، دار صادر، ط(3)، 1964م.

49) اللهجات العربية نشأة وتطورا: عبد الغفار حامد هلال، دار الفكر العربي 1418هـ، 1989م.
50) مجاز القرآن: أبو عبيدة (معمر بن المثنى، ت210هـ)، تحقيق محمد فؤاد سزكين، مؤسسة الرسالة، بيروت، (ط2)، 1981م.
51) مدرسة البصرة النحوية: عبد الرحمن السيد، (ط1)، دار المعارف، القاهرة، 1968م.
52) المزهر في علوم العربية و أنواعها: السيوطي(جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر911هـ)، تحقيق ج: جاد المولى وزميله، القاهرة، د ت ج.2
53) مسائل خلافية في النحو: العكبري، تحقيق محمد خير الحلواني، دمشق، دار المأمون للتراث.
54) المستتر في القرآت العشر: أبو الطاهر أحمد بن علي بن عبيد الله بن عمر بن سوار البغدادي (ت496هـ)، تحقيق و دراسة عمار أمين الردو، دار البحوث للدراسات الإسلامية و إحياء التراث، (ط1)، 1426هـ،2005م
55) المصطلح النحوي، نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري: عوض محمد القوزي، الرياض، 1981م.
56) المصطلحات اللغوية الحديثة في اللغة العربية: معجم عربي-أعجمي/أعجمي-عربي: محمد رشاد الحمزاوي . المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987م
57) المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث: الأمير مصطفى الشهابي، مجمع اللغة العربية بدمشق، 1988م.
58) المفصل في تاريخ النحو العربي، الجزء الأول قبل سيبويه: محمد خير الحلواني(ت1986م)، مؤسسة الرسالة، دط، دت.
59) معجم مقاييس اللغة: تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1989م.
60) المعجم الوسيط: إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط(3)، 1998 م.
61) المقدمة: ابن خلدون تحقيق علي عبد الواحد وافي، القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 2004م.
62) معاني القرآن: يحيى بن زياد الفراء، تحقيق أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار معاني القرآن ، للفراء ، عالم الكتب ، بيروت، الطبعة الثالثة، 1403 ه - 1983م.
63) معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ياقوت الحموي (ت626هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار العرب الإسلامي: بيروت، 1414هـ، 1993م.
64) معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1989م.
65) المعجم الوسيط: قام بإخراجه مصطفى وآخرون، واشرف على طبعه عبد السلام هارون، المطبعة العلمية، طهران، د.ت.
66) المعرب و الدخيل في اللغة العربية و آدابها: محمد أتنوخي دار المعرفة للطباعة و النشر و التوزيع، ط1، 1426ه، 2005م.

67) مكانة الخليل بن أحمد الفراهيدي في النحو العربي: جعفر عبابنة، ط1، دار الفكر، عمارة، 1984م.
68) الموجز في النحو: محمد بن السراج، تحقيق مصطفى الشويمي، مؤسسة بدران للطباعة و النشر، بيروت، 1965م.
69) النحو التعليمي في التراث العربي: محمد إبراهيم عبادة، منشأ المعارف بالإسكندرية، 1986م.
70) النحو العربي والدرس الحديث: بحث في المنهج، عبد الراجحي (ت2010 م)، (ط9)، دار النهضة العربية، بيروت 1982م.
71) النحو وكتب التفسير: رفيدة إبراهيم عبد الله، ج1، دار الجماهيرية، (ط1)، 1982م.
72) النحو الوافي: عباس حسن، ج1، (ط 9)، دار المعارف القاهرة 3.
73) النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع عشر للهجرة، ط1، دار الحرية، بغداد،1978م.
74) نزهة الألباء في طبقات الأدباء: ابن الأنباري (أبو البركات عبد الرحمان بن محمد، ت577هـ)، تحقيق إبراهيم السامرائي، بيروت، ط(3)، 1402هـ، 1982م.
75) نظرات في التراث اللغوي عند العرب: عبد القادر المهيري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، (ط1)، 1993م.
76) وفيات الأعيان: ابن خلكان (تت681هـ)، نشره محي الدين عبد الحميد، القاهرة 1367هـ، 1948م.
77) همع الهوامع: تحقيق عبد العال سالم مكرم، دار البحوث العلمية، الكويت، دت.